(٦)

"يجادل كفّار مكّة النّبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم بالباطل في عيسى عليه السّلام عبد اللّه ورسوله وأحد علامات السّاعة الّتي لا شكّ فيها"

الآيات (٥٧-٦٦)

﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾

يصدّون: العرب تقول: يَصِدّ ويصُدّ مثل: يَشِدّ ويشُدّ، وينِمّ من النّميم. يصدّون منه وعنه سواء[1] الصّدّ: الإعراض والصُّدوف. صدَّ عنه يَصِدّ ويصُدّ صَدّاً وصُدوداً: أعرض[2] وجاء في تفسير الطبري[3]: "واختلفت القرّاء في قراءة قوله:{يصدّون} فقرأته عامّة قرّاء المدينة وجماعة من قرّاء الكوفة: {يصُدّون} بضمّ الصّاد. وقرأ ذلك بعض قرّاء الكوفة والبصرة: {يَصِدّون}بكسر الصّاد. واختلف أهل العلم بكلام العرب في فرق ما بين ذلك إذا قرئ بضّم الصّاد، وإذا قرئ بكسرها. فقال بعض نحويّي البصرة ووافقه عليه بعض الكوفيّين هما لغتان بمعنىً واحد مثل يشدّ ويشدّ وينمّ وينِمّ من النّميمة. وقال آخر: منْهم من كسر الصّاد فمجازها[4] يضجّون. ومن ضمّها فمجازها يعدلون. وقال بعض من كسرها فإنّه أراد يضجّون، ومن ضّمها فإنّه أراد الصّدود عن الحقّ" ومن معاني يصدّون: يضحكون[5] فرحاً بما سمعوا[6].

---

(1) معاني القرآن للفرّاء ٣/٣٧، وانظر تفسير الطبري ٢٠/٥٢ ، وتفسير القرطبي ٥٩٢٣ .

(2) لسان العرب ى: "صدد".

(3) تفسير الطبَري ٢٠/٥٢ .

(4) أي معناها .

(5) الجلالين .

(6) تفسير ابن كثير ٧/٢٢٠ ، و٢٢١ وتفسير القرطبي ٥٩٢٣ .

بل هم قوم خصمون: يقول جلّ ثناؤه: ما بقومك يا محمّد هؤلاء المشركين في محاجّتهم إيّاك بما يحاجّونك به طلب الحقّ بل هم قوم خصمون يلتمسون الخصومة بالباطل[1].

إن هو إلاّ عبد: ما عيسى إلاّ عبد من عبادنا[2].

وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل: أي آيةً تدلّ على نبوّته[3] سبب النّزول.

أخرج أبو داود في ناسخه و ابن المنذر و ابن مردويه و الطّبراني عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: لّما نزلت[4] : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ شقّ ذلك على أهل مكّة و قالوا : شتم الآلهة . فقال ابن الزّبَعْرَى[5] أنا أَخْصِمُ[6] لكم محمّدا، ادعوه لي فدعي فقال: يا محمّد، هذا شيءٌ لآلهتنا خاصّةً أم لكلّ من عُبِد من دون الله ؟ قال: بل لكلّ من عُبِدَ من دون الله. فقال ابن الزّبَعْرَى: خُصِمت وربّ هذه البيّنة[7] يعني الكعبة. ألست تزعم يا محمّد أنّ عيسى عبد صالح، و أنّ عزيراً عبد صالح، و أنّ الملائكة صالحون ؟ قال: بلى. قال: فهذه النّصارى تعبد عيسى. و هذه اليهود تعبد عزيراً.

---

[1] تفسير الطّبري ٥٣/٢٥.

[2] تفسير الطّبري ٥٣/٢٥.

[3] لسان العرب:"مثل" و انظر تفسير الطّبري ٥٣/٢٥.

[4] سورة الأنبياء ٩٨.

[5] أسلم بعد فتح مكّة و حسن إسلامه و توفّي سنة ١٥ هـ أنها -مثلاً- الأعلام ٨٧/٤.

[6] أغلب محمّداً في الخصومة.

[7] البنيّة: كلّ ما يُبنَى و تطلق على الكعبة.

وهذه بنو مليح تعبد الملائكة. فصبحّ أهل مكّة وفرحوا فنزلت[1]: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ عزير وعيسى والملائكة: {أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ} ونزلت: ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ قال: وهو الصّحيح[2]

وبطبيعة الحال ليس ثمّة رضاً من المعبودين عن عبادة العابدين لهم، بل إنّ منهم من لا علم له بذلك أصلاً كعيسى – عليه السّلام –.

ضرب الله سبحانه وتعالى مثلاً بعيسى – عليه السّلام – وجعل مثله مثل آدم – عليه السّلام – وذلك في قول الحقّ جلّ علا في سورة آل عمران[3]: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ لقد خلق الله تعالى عيسى – عليه السّلام – من أنثى لا ذكر، وخلق آدم – عليه السّلام – من طين، فلا أنثى ولا ذكر، فثمّة تشبيه الغريب بالأغرب. وكما أنّه لا يصحّ الزّعم بأنّ آدم – عليه السّلام– ابن الله كذلك لا يصحّ الزّعم بأن عيسى – عليه السّلام – ابن الله، وهذا من باب الأحرى والأولى، لأنّ عيسى – عليه السّلام– يقلّ غرابةً عن آدم عليه السّلام. وحينما أنزل الحقّ جلّ خطاباً لأهل مكّة قوله عزّ من قائل في سورة الأنبياء: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ فرح كفّار مكّة وأعلنوا رضاهم أن تكون أصنامهم الّتي يعبدونها من دون الله تعالى في النّار مع عيسى – عليه السّلام – الّذي تعبده النّصارى.

---

[1] سورة الأنبياء ١٠١ والحُسنى بمعنى السّعادة السّابقة لهم من الله تعالى.

[2] الدّرّ المنثور للسّيوطي ٦٧٩/٥.

[3] الآية ٥٩.

وقال كفّار مكّة أآلهتنا الّتي نعبدها من دون الله تعالى خير أم عيسى - عليه السّلام- الّذي تعبده النصّارى؟ يريدون أنّهم راضون أن تكون أصنامهم في النّار مع عيسى -عليه السّلام- وبطبيعة الحال لم يضربوا النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - هذا مَثَل عيسى - عليه السّلام - مثل الأصنام الّتي يعبدونها من دون الله تعالى إلاّ بقصد الجدل العقيم، فهم قوم لا تنقصهم الحجّة، وإنّما هم قوم يحبون الخصام لذاته، وكانوا يعبدون الأصنام وليس عيسى عليه السّلام. إنّ عيسى - عليه السّلام - ليس إلاّ عبداً لله تعالى، أنعم عزّ وجلّ عليه بالنّعم الّتي لا تُحْصى، وفي مقدّمتها نعمة الرّسالة، ثمّ هو أحد أولي العزم الخمسة من الرّسل. وقد جعل الله سبحانه وتعالى عيسى - عليه السّلام - آيةً لبني إسرائيل وعبرةً ودليلاً على القدرة المطلقة للذّات العليّة. إنّه - عليه السّلام - بالإضافة إلى أنّ الله تعالى أوجده من دون أب، هو قد أنعم الله تعالى عليه بالآيات الباهرات والمعجزات القاهرات في قومه الماهرين في الطّبّ. ومن هذه المعجزات إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله تعالى.

﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ ﴾

لجعلنا منكم: بجعلنا بدلاً منكم[1].

يخلفون: يخلفونكم فيها يعبدونني[2].

---

[1] التفسير الطّبري ٥٣/٢٠ .

[2] التفسير الطّبري ٥٣/٢٠ .

وإنّه لعلم للسّاعة: وإنّ عيسى ظهورَه علم يعلم به مجيء السّاعة لأنّ ظهوره من أشراطها، ونزوله إلى الأرض دليلٌ على فناء الدّنيا وإقبال الآخرة[1].

فلا تمترنّ بها: فلا تشكّنّ فيها وفي مجيئها أيّها النّاس[2].

ولو نشاء لجعلنا بدلاً منكم يا بني آدم ملائكةً في الأرض يخلفونكم في الأرض: يعبدونني لا يشركون بي شيئا. وإنّ عيسى - عليه السّلام- ونزوله إلى الأرض دليل على قيام السّاعة وفناء الدّنيا وإقبال الآخرة. فلا يكن منكم شكّ في قيام السّاعة يا كفّار مكّة ويا أيّها النّاس، واتبعوني فإنّي بإذن الله تعالى أهديكم إلى الصّراط المستقيم والطّريق القويم إلى جنّات النعّيم. واحذروا الشّيطان الرّجيم أنّ يغويكم ويصدّكم عن دين الله تعالى الّذي بعثني به وأهديكم إليه. وإنّ الشيطان الرّجيم هو العدوّ البيّن العداوة منذ أن خلق الحقّ جلّ وعلا أباكم آدم - عليه السّلام - ومنذ أن رفض اللعين أمر الله تعالى بالسّجود لآدم - عليه السّلام- سجود تحيّة وتكريم.

روى البخاريّ[3] ومسلم[4] واللّفظ للبخاريّ عن سعيد بن المسيّب أنّه سمع أبا هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - : والّذي نفسي بيده، ليوشكنّ أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلا، فيكسر الصّليب[5]، ويقتل الخنزير[6]،

---

[1] التفسير الطّبري ٢٠/٥٤ .

[2] التفسير الطبري ٢٠/٥٥ .

[3] فتح الباري ٦/٤٩٠ حديث رقم ٣٤٤٨ .

[4] صحيح مسلم تحيق عبد الباقي ١/١٣٥ حديث رقم ٢٤٢ .

[5] أي يبطل دين النّصرانية بأن يكسر الصّليب حقيقةً ويبطل ما تزعمه النصارى من تعظيمه فتح الباري ١٦/٤٩١ .

[6] يستفاد منه تحريم اقتناء الخنزير وتحريم أكله وأنه نحس ، لأنّ الشّيء المنتفع به لا يشرع إتلافه فتح الباري ٦/٤٩١ .

ويضع الحرب[1] ويفيض المال حتّى لا يقبله أحد، حتّى تكون السّجدة الواحدة خيراً من الدّنيا وما فيها[2] ثمّ يقول أبو هريرة : واقرؤوا إن شئتم[3]: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾[4]

﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾

بالحكمة: بالنّبوّة[5].

ولأبيّن لكم بعض الّذي تختلفون فيه: من أحكام التّوراة[6].

ولّما جاء عيسى - عليه السّلام - بالآيات البيّنات من ربّه عزّ وجلّ قال لقومه بني إسرائيل قد جئتكم بالنبوّة ولأبيّن لكم بعض الّذي تختلفون فيه من أحكام التّوراة، فاتّقوا الله تعالى فاتّبعوني وأطيعوا أمري فإنّي مبلّغ عن ربّي جلّ وعلا. إنّ الله تعالى هو ربّي ربّاني بنعمه، وغمرني بآلائه، وهو ربّكم فاعبدوه وحده دون سواه. هذا صراط مستقيم أدعوكم إليه وطريق قويم موصل إلى جنّات النّعيم بإذن الله تعالى السّميع العليم.

---

[1] في رواية : (الخنزير) والمعنى أنّ عيسى -عليه السّلام- لا يقبل إلاّ الإسلام فتح الباري ٤٩٢٠/٦ .

[2] أي إنّهم حينئذٍ لا يتقرّبون إلى الله إلا بالعبادة ، لا بالتصدّق بالمال فتح الباري ٤٦٢/٦ .

[3] سورة النّساء ١٥٩.

[4] وانظر فتح الباري ٤٩١/٦ حديث رقم ٣٤٤٩ .

[5] تفسير الطّبري ٥٥/٢٥ .

[6] تفسير الطّبري ٥٥/٢٥.

ومّما جاء في بعض هذه المعاني على لسان عيسى – عليه السّلام – مخاطباً قومه بني إسرائيل قوله تعالى في سورة آل عمران[1]: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾

فاختلف الأحزاب من أتباع عيسى – عليه السّلام – والجماعات في النّصارى من بينهم وليس من غيرهم دليلاً على أنّ اختلاف النّصارى في عيسى – عليه السّلام – بسبب البغي بينهم ليس بسبب نقص الحجّة. إنّ منهم من قال إنّ عيسى – عليه السّلام– هو عبد الله ورسوله، وهذه هي الفئة النّاجية بإذن الله تعالى. وإنّ منهمَ مَنْ زعم أنّ عيسى – عليه السّلام – هو الله، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيرا، وإنّ منهم من زعم أنّه – عليه السّلام– هو ابن الله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ﴾.

هل ينتظر المشركون من النّصارى ومن العرب ومن المشركين الآخرين إلاّ السّاعة أن تأتيهم فجأةً وهم لا يشعرون بقيامها؟ وما معنى قيام السّاعة في حق المشركين؟ دخول النّار وبئس القرار. إنّ على المشركين أن يبادروا إلى اعتناق دين الإسلام الّذي أرسل الله تعالى به محمّداً – صلّى الله عليه و سلّم – خاتم النّبيين وأشرف المرسلين. إنّ دين الإسلام الّذي أرسل الله تعالى به محمّداً –صلّى الله عليه وسلّم – ناسخ لكلّ دين.

---

[1] الآية ٥٠/٥١

(٧)

"أصدقاء الدّنيا على الطّاعات أصدقاء الآخرة وثوابهم الجنّة، وأصدقاء الدّنيا على المعاصي أعداء الآخرة وعقابهم النّار"

الآيات (٦٧-٨٩)

﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

الأخلاّء: جمع خليل، وهو الّذي أصفى المودّة وأصحّها[1].

يومئذ: يوم القيامة[2].

يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون: فإنّهم يقال لهم : يا عباد لا خوف عليكم اليوم من عقابي، فإنّي قد أمّنتكم منه برضاي عنكم. ولا أنتم تحزنون على فراق الدّنيا، فإنّ الّذي قَدِمْتُمْ عليه خير لكم ممّا فارقتموه منها[3].

تحبرون: تفرحون[4] وتسرّون وتكرمون[5] وتنعّمون[6] وتسعدون[7].

---

[1] لسان العرب : (خلل).

[2] تفسير الطّبري ٢٠/٥٦ .

[3] تفسير الطّبري ٢٠/٥٧ .

[4] مفردات الرّاغب الأصفهاني : "حبر" ١/١٣٨ ومعجم مقاييس اللغة : :حبر" ٢/١٢٧ .

[5] الجلالين .

[6] تفسير الطّبري ٢٠/٥٧ .

[7] تفسير ابن كثير ٧/٢٢٥ .

يطاف عليهم بصحافٍ من ذهبٍ وأكواب: الصّحاف جمع للكثير من الصَّحْفة وهي القصعة[1] العريضة[2] وأكواب: جمع كُوب، وهو الإبريق المستدير الرّأس الّذي لا أذن له ولا خرطوم[3] ليشرب الشّارب من حيث شاء[4] ومعنى الكلام: يطاف عليهم فيها بالطّعام في صحافٍ من ذهب، وبالشّراب في أكوابٍ من ذهب. فا ستغني بذكر الصّحاف والأكواب من ذكر الطّعام والشّراب الّذي يكون فيها المعرفة السّامعين بمعناه[5].

وتلك الجنّة الّتي أورثتموها بما كنتم تعلمون: روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله – صلّى اله عليه وسلّم – : كلّ أهل النّار يرى مترله من الجنّة حسرةً فيقول[6]: {لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} وكلّ أهل الجنّة يرى مترله من النّار فيقول[7] : ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ ليكون له شكرا. قال: وقال رسول الله – صلّى الله عليه وسلمّ – : ما مِنْ أحدٍ إلاّ وله مترل في الجنّة ومترلُ في النّار. فالكافر يرث المؤمن مترله من النّار.

---

[1] تفسير الطبَري ٧/٢٥ .

[2] مفردات الرّاغب الأصفهاني : "صحف" ٣٦٢/٢ .

[3] تفسير الطّبري ٥٧/٢٠ .

[4] الجلالين .

[5] تفسير الطّبري ٥٨/٢٠ .

[6] سورة الزّمر ٥٧ .

[7] سورة الأعراف لمجموع له النّاس٤٣ .

والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنّة، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ الأصدقاء على المعاصي والباطل في الحياة الدّنيا بعضهم لبعض عدو يوم القيامة، إلا المتقين الّذين كانت صداقتهم في الطّاعات والحقّ.

إن هؤلاء المتّقين يقال لهم في ذلك الموقف العصيب واليوم لمجموع له النّاس المشهود: يا عبادي، يا من أُضِفتم في إضافة تشريفٍ وتكريم: لا خوف عليكم اليوم بسبب أعمالكم الصّالحة الّتي قدّمتموها في الحياة الدّنيا، ولا أنتم تحزنون على ما تركتم وراءكم في الحياة الدّنيا ممّا تحبّون، لأنّ الآخرة خير لكم من الأولى. إنّ هؤلاء المتّقين الّذين سبقت لهم السّعادة من الله تعالى هم الّذين آمنوا بآيات الله تعالى بقلوبهم، وكانوا مستسلمين مذعنين خاضعين الله تعالى بجوارحهم. وهكذا جمع المتّقون بين نقاء الظّاهر وصفاء الباطن.

وهؤلاء المتّقون يقال لهم يوم القيامة: ادخلوا الجنّة أنتم وأزواجكم في الحياة الدّنيا ومن الحور العين تسَرّون وتتنعّمون وتكْرمون. يطاف عليهم بصحافٍ من ذهبٍ وقصاع فيها الطّعام، وبأكوابٍ من ذهب لا آذان لها ولا خراطيم ليشرب الشاربون من حيث شاؤوا. وفي الجنّة ما تشتهيه نفوس المتقين من صنوف النعيم، وتلذه أعينهم ويقال لهم: أنتم في الجنّة خالدون. وتلك الجنّة الّتي أورثتموها بسبب ما كنتم تعملون من صالحاتٍ في الحياة الدّنيا. لكم فاكهة كثيرة منها تأكلون ما تشتهون.

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

لا يفتّر عنهم: لا يخفّف عنهم العذاب. وأصل الفتور الضّعف[1].

وهم فيه مبلسون: وهم في عذاب جهنّم آيسون من النّجاة مستسلمون للعذاب والبلاء[2].

إنّ المشركين في عذاب جهنّم خالدون. لا يخفّف عنهم العذاب وهم فيه آيسون من كلّ خير، مستسلمون للعذاب والبلاء وكلّ شرّ. وما ظلمهم الله تعالى بإضافة سيّئة وحذف حسنة، ولكن كانوا هم الّذين ظلموا أنفسهم بالشّرك وبارتكاب الذّنوب.

﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾

يا مالك: هو خازن النّار[3].

ليقض علينا ربّك: ليمتنا ربّك فيفرغ من إماتتنا[4].

لقد جئناكم بالحقّ: لقد أرسلنا إليكم يا معشر قريش رسولنا محمّداً بالحقّ[5].

---

[1] تفسير الطّبري ٢٥/٥٨ .

[2] انظر تفسير الطّبري ٢٥/٥٨ .

[3] تفسير الطّبري ٢٥/٥٩ .

[4] تفسير الطّبري ٢٥/٥٩ .

[5] تفسير الطّبري ٢٥/٥٩ .

ونادى المشركون وهم في أعماق الجحيم وصاحوا: يا مالك، وهو خازن النّار، ليقض علينا ربك وليمتنا كي نرتاح من العذاب الّذي نعانيه، والشّقاء الّذي نقاسيه. قال لهم خازن النّار: إنكم ماكثون في النار فلا خروج منها ولا تخفيف للعذاب.

ويقال للمشركين من أمّة كلّ رسول عموماً، مشركي مكة خصوصاً ومن شاكلهم: لقد جئناكم بالحقّ عن طريق رسولنا محمد - صلّى الله وسلّم - الّذي أرسلناه بدين الإسلام، وأوحينا إليه القرآن الكريم خير الكلام، ولكنّ أكثركم للحقّ كارهون، ولدين الإسلام جاحدون، ولمحمّد - صلّى الله عليه وسلّم - وللقرآن الكريم مبغضون.

والمعرف أنّ عدد الذين هداهم الله تعالى للإسلام من أهل مكّة قبل الهجرة زهاء ثلاثمئة شخص[1] على أكتاف هؤلاء قامت بفضل الله تعالى دولة الإسلام في المدينة المنوّرة.

﴿ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

أم أبرموا أمراً فإنّا مبرمون:أم أبرم هؤلاء المشركون من قريش أمراً فأحكموا يكيدون به الحقّ الّذي جئناهم به فإنّا محكمون لهم ما يخزيهم ويذلّهم من النّكال[2].

أم أحكم هؤلاء المشركون من قريش أمراً يكيدون به الحقّ الّذي جاء به محمدٌ - صلّى الله عليه وسلّم - ومكر هؤلاء الكافرون بمحمدٍ - صلّى الله عليه وسلّم - ليأسروه أو يقتلوه أو يخرجوه من مكّة المكرّمة، فإنّا محكمون أمراً لإفساد كيدهم

---

[1] نظرية الإسلام وهديه لأبي الأعلى المودودي ١٢٥ .

[2] تفسير الطّبري ٥٩/٢٥ .

وإظهار الحقّ، وإنّا ماكرون بهم فمفسدون مكرهم، وإنا وراء ذلك ناصرون محمداً - صلّى الله عليه وسلم- والمؤمنين، ومعلون شأن المسلمين، رافعون راية لا إله إلا الله محمد رسول الله في الخافقين عاليةً خفّاقة.

أم يظنّ هؤلاء المشركون أنّا لا نسمع سرّهم وما يتناجون به بينهم في الخفاء. خانه ظنّهم. إنّا نسمع سرّهم ونجواهم، ونعلم ما توسوس به نفوسهم، وإنّ رسلنا لديهم يكتبون كلّ ما يقولون ويفعلون، وسوف يأتون إلينا ويعاقَبون[1].

يصفون: يكذبون[2].

قل يا محمّد المشركين الّذين يزعمون إنّ الملائكة بنات الله تعالى والّذين عملوا الأصنام على هيئة تصوّرهم للملائكة وعبدوا تلك الأصنام: إن كان، على سبيل الافتراض، الله تعالى ولد، فأنا أوّل العابدين لهذا الولد، ولكنّ الله تعالى لم يتّخذ صاحبةً ولا ولدا، ولم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

تنزيهاً لله تعالى الواحد الأحد الفرد الصّمد من الصّاحبة، والولد، والشّريك، الّذي خلق كلّ شيءٍ فقدّره تقديرا، ربّ السّموات والأرض وما بينهما، ربّ العرش العظيم، وتنزيهاً لله تعالى من كلّ ما لا يليق بجلاله ووحدانيّته، ممّا ألحقه به جلّ وعلا المفترون على الله تعالى الكذب.

فذرهم يا محمّد يخوضوا ويلعبوا في شركهم وباطلهم حتّى يلاقوا يوم القيامة الّذي يوعدون بالعذاب الأليم فيه، إن لم يتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحا فيؤمنوا ويعملوا صالحاً . وإنّ العذاب الأليم الّذي ينتظر المشركين يوم القيامة ربّما يسبقه العذاب الأليم

---

[1] انظر هنا فتح الباري ٨/ ٥٦٢ الحديث رقم ٤٨/٧ .

[2] تفسير الطّبري ٦٢/٢٥ .

في الأولى، وبذلك يجتمع على المشركين خزي الدنيا والآخرة.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

وهو الّذي في السّماء إله وفي الأرض إله: يقول تعالى ذكره: والله الذي له الألوهية، في السّماء معبود، وفي الأرض معبود كما هو في السّماء معبود، لا شيء سواه تصلح عبادته. يقول تعالى ذكره: فأفردوا لمن هذه صفته العبادة ولا تشركوا به شيئاً غيره[1] أي هو إله من في السّماء، وإله من في الأرض، يعبده أهلهما، وكلّهم خاضعون له، أذلاّء بين يديه[2].

إلاّ من شهد بالحقّ: فوحّد الله وأطاعه[3] وقال كلمة الإخلاصِ[4] وأقرّ بالحقّ وهو يعلم حقيقة ما شهد به[5] وهم يعلمون: وهم يعلمون حقيقة ما شهدوا به[6].

وقيله: وعنده علم السّاعة وعلم قيله[7].

---

[1] تفسير الطّبرى ٦٢/٢٥ .
[2] تفسير ابن كثير ٢٢٩/٧ .
[3] تفسير الطّبرى ٦٢/٢٥
[4] تفسير الطّبرى ٦٢/٢٥.
[5] انظر تفسير الطّبري ٦٢/٢٥ .
[6] تفسير الطّبرى ٦٢/٢٥ .
[7] تفسير الطّبري ٦٣/٢٠ وانظر تفسير ابن كثير ٢٣٠/٧ ، والوقف الابتداء لابن الأنبارى ٨٨٧ ، والجدول في إعراب القرآن وصرفه /٣٦١

والله تعالى هو إله من في السّماء، إله من في الأرض، يعبده الجميع وحده دون سواه، لأنه هو وحده المستحقّ إن يُعْبَد وأن يُحْمَد، فعليكم أيّها المشركون ألاّ تكونوا الشّاذّين وحدكم، المشركين الآلهة المزعومة مع الله تعالى في العبادة. والله تعالى هو الحكيم الّذي تتجلّى حكمته في خلقه وتدبيره وقَدَره وفي كلّ شيء، العليم الّذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السّماء.

وتمجّد الله عز وجل وتعالى وتعظم، وزاد خيره جلّ وعلا وتكاثر عطاؤه. هو الّذي له ملك السّموات والأرض وما بينهما، وعنده وحده دون سواه علم السّاعة، وإليه نرجع جميعاً يوم القيامة للحساب فالجزاء، الثّواب أو العقاب.

وأولئك الذّين يعبدهم المشركون من دون الله تعالى لا يملكون الشّفاعة يوم القيامة إنّ الّذي يملك الشّفاعة من شهد بالحقّ، ونطق بكلمة التّوحيد، وأخلص العبادة لله تعالى، وكان بقوله وفعله خير شاهدٍ على الحقّ الّذي يؤمن به ويعمل بموجبه، وهو يعلم أنّ الله تعالى خلقه من أجل أن يعبد الله تعالى وحده لا شريك له. إنّه يعلن شهادة التّوحيد، ويعمل بمقتضاها، ويدعو الله تعالى من أعماقه أن يكرمه التّفضّل بقبول أعماله الصّالحة الّتي أراد بها وجهه الكريم جلّ وعلا.

إنّ هؤلاء الذينّ ينطقون بشهادة الحقّ، ويترجمونها إلى قولٍ وعملٍ صالِحَيْن، ويرضى الله تعالى عنهم، الّذين يأذن الله تعالى لهم بالشفاعة إذا شاء.

ولئن سألت كفّار مكّة ومن شاكلهم من المشركين: من خلقكم؟ فإنّهم يقولون بكلّ تأكيد: خلقنا الله تعالى وما دام المشركون يقرّون بتوحيد الرّبوبيّة فأنّى يؤفكون كيف يصرفون عمّا ينبغي أن يترتب على توحيد الرّبوبية من توحيد الألوهيّة زاده عزّ وجلّ بالعبادة. وهذه الآية الكريمة قرب نهاية السّورة الكريمة تذكرنا بالآية الكريمة

التّاسعة من السّورة الكريمة. قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾.

هكذا يكون في أوّل السّورة الكريمة وآخرها نعيٌ على المشركين عَدَمَ إقرارهم بتوحيد الألوهيّة.

وكما كان عند الله تعالى علم السّاعة كان عنده جلّ علم قيل المصطفى - صلّى الله عليه وسلّم - شاكياً قومه المشركين المعرضين عن دعوة الحقّ: يا ربّ إنّ هؤلاء قومي، وأبناء جلدتي قوم لا يؤمنون بك ولا يوحّدونك ولا يتّبعونني.

فاصفح عنهم أيها الرّسول الكريم والنّبي العظيم وقل لهم سلام عليكم وأمن وطمأنينة، كي تتدبرّوا أمركم، وتؤوبوا إلى رشدكم، وتعتنقوا دين الإسلام الّذي بعثت به حبيبي - صلّى الله عليه وسلّم- ، وإلاّ فسوف تعلمون أليم عذابي وشديد عقابي، إن أصررتم على شرككم و لم تتوبوا وتؤمنوا وتعملوا صالحاً.

ويلحظ أنّ معنى الصّفح في هذه الآية الكريمة سبق أن أومأت إليه الآية الكريمة الخامسة على نحو من الأنحاء.

وهذا نوع من الرّباط بين آيات السّورة الكريمة وإن تباعدت الآيات الكريمات.

تعقيب:

نودّ أنّ نشير في هيئة نقاطٍ إلى بعض الأمور المتعلّقة بالسّورة الكريمة:

١- سورة الزّخرف من المكّيّ من القرآن الكريم الّذي نزل على المصطفى - صلّى الله عليه وسلّم - قبل الهجرة[١].

٢- عدد آيات السّورة الكريمة تسعٌ وثمانون آية. وعدد كلماتها ثمانمئة وثلاثٌ وثلاثون كلمة. وعدد حروفها ثلاثة آلاف وأربعمئة حرف[٢].

٣- تسمى السّورة الكريمة سورة الزّخرف وسورة حم الزّخرف[٣] لمجيء القول: {وزخرفا} بمعنى وذَهَبا، في الآية الكريمة الخامسة والثّلاثين.

٤- سورة الزّخرف رابع سور آل حم السّبع الّتي رُتّبت المصحف الشّريف وفق ترتيب نزولها[٤] فهي واسطة العقد.

٥- تبدأ سورة الزّخرف بالحرفين المقطّعين: {حم} وتتّفق مع سورة الدّخان في الآية الكريمة الثّانية: {والكتاب المبين} .

٦- عن طريق الاستعراض السّريع لأهمّ قضايا السّورة الكريمة نستطيع بإذن الله تعالى أن نتبيّن وحدتها العضويّة والتّرابط بين قضاياها. تبدأ السّورة الكريمة بالحرفين المقطعين: {حم} ويأتي الانتصار للقرآن الكريم في السّورة الكريمة جرياً على عادة كلّ

---

(١) انظر الإتقان ٤٣/١، وتفسير ابن كثير ٢٣١/٧، والجلالين، وتفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٥٠/٢٥

(٢) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٥٠/٢٥ .

(٣) الإتقان ٤٣/١ .

(٤) الإتقان ٤٣/١ .

السّور الكريمات الّتي تبدأ بالحروف المقطّعة. والحديث عن القرآن الكريم يأتي على الفور بعد: {حم} وذلك في الآيات الكريمات (٢-٥) كما يأتي على التّراخي في الآيات الكريمات (٢٩و٣٠ و٣١ و ٣٢ و ٤٣ و ٤٤) وبذلك يكون القرآن الكريم أحد موضوعات السّورة الكريمة.

وتجاه إصرار كفّار مكّة على الإعراض عن الرّسول الكريم - صلّى الله عليه وسلّم- والقرآن العظيم يتحوّل السّياق إلى تسلية المصطفى - صلّى الله علية وسلّم -. إنّ الّذي صادفه - صلّى الله عليه وسلّم - من قومه صادفه كل المرسلين السّابقين وقد نصر الله تعالى رسله وأهلك أقوامهم المكذبين. وكفّار مكّة مثل غيرهم من الكافرين السّابقين الّذين يقرّون بتوحيد الرّبوبيّة، وهو توحيد الله تعالى بأفعاله، ولا يقرّون بتوحيد الألوهيّة، وهو توحيد الله تعالى بأفعال العباد. إنّ كفّار مكّة يعترفون بأنّ الّذي خلق السّموات والأرض هو الله تعالى العزيز العليم. وهم يشركون الأصنام مع الله تعالى في العبادة. وهنا نتبيّن أنّ الله تعالى الرّؤوف الرّحيم يبيّن في السّورة الكريمة عدداً من مظاهر تسخير العزيز العليم للنّاس ما في السّموات والأرض.

ويلحظ على الآيات الكريمات صفة الثّنائية أو الزّوجيّة.

وقد تأكّد العلم من زوجيّة المخلوقات كلّها، وليس من واحدٍ سوى الله تعالى.

ونستطيع أن نقول: إنّ قضيّة التّوحيد هي المحور الّذي تدور حوله السّورة الكريمة.

وتجاه إصرار المشركين على عدم ترتيب النّتيجة الصّحيحة، وهي الإقرار بتوحيد الألوهيّة، على المقدّمة الصّحيحة، وهي الإقرار بتوحيد الرّبوبيّة، يتحوّل الحديث إلى المشركين الّذين زعموا أنّ الملائكة بنات الله تعالى فعبدوهم، أو عبدوا الأصنام الّتي صاغوها وفق تصوّرهم للملائكة. والعجيب في القوم أنّهم يجعلون الملائكة، وهم إناث،

لله تعالى، ويجعلون لأنفسهم الذّكر، ويزعمون أنّ الله تعالى لو لم يرض عن عبادتهم الأصنام لمنعهم من عبادتها، ويصرّون على تقليد آبائهم وأجدادهم المشركين.

لقد انتقم الله تعالى من كلّ المشركين السّابقين، ويوشك أن يحلّ العذاب بكفّار مكّة إن لم يتداركوا الأمر قبل فوات الأوان.

وبقصد تثبيت فؤاد المصطفى - صلّى الله عليه وسلّم - وترسيخ قضيّة التّوحيد تتحدّث السّورة الكريمة عن ثلاثة من أولي العزم من الرّسل مرتين تأريخيّاً وهم إبراهيم وموسى وعيسى، عليهم صلوات الله وسلامة أجمعين.

إنّ إبراهيم - عليه السّلام - الّذي آتاه الله تعالى رشده في وقتٍ مبكرّ وعبد الله تعالى وحده دون سواه قد تبرّأ من قومه المشركين وممّا يعبدون من دون الله تعالى. وإبراهيم - عليه السّلام - هو أبو الأنبياء من بعده أجمعين. وقد جعل إبراهيم - عليه السّلام - كلمة التّوحيد في ذرّيته، ولا يزال في ذريّته - عليه السّلام - من يوحّد الله تعالى.

وقد كان المصطفى - صلّى الله عليه وسلّم - يعبد الله تعالى على دين إبراهيم - عليه السّلام- حينما كان يخلو ويتحنّث في غار حراء حتّى بعثه الله تعالى رحمةً للعالمين.

أمّا أهل مكّة فقد كانوا مشركين، ووقفوا من النّبي - صلّى الله عليه وسلّم- موقف العداء وزعموا أنّ القرآن الكريم سحر. ودليلاً على هوان الدّنيا على الله تعالى متّع عزّ وجلّ كفّار مكّة كما متّع آباءهم. وتأكيداً لهوان الدّنيا على الله تعالى وإلاّ ما سقى الكافر فيها شربة ماء يقرّر السّياق أنّ الحقّ جلّ وعلا لو شاء لجعل للكافرين به بيوتاً من فضةٍ وذهبٍ ولكنّه عزّ جلّ لم يفعل كيلا يكون النّاس أجمعين أمةً واحدةً كافرة.

وهؤلاء المشركون أولياؤهم الشّياطين الّذين يسلّطهم الله تعالى عليهم فيعلونهم كما يعلو القيض البيض، والقشرة الخارجيّة القاسية للبيضة. وهؤلاء الشياطين أولياء المشركين في الدّنيا هم الأعداء في الآخرة حيث لا ينفع النّدم.

وإنّ استعلاء شياطين الإنس والجنّ على أوليائهم من الإنس قد نصّت عليه سورة فصّلت من قبل في الآية الكريمة الخامسة والعشرين، ثمّ إنّ سورة فصّلت قد بيّنت كيفيّة دفع المسلمين لله ربّ العالمين أذى كلٍّ من شياطين الإنس والجنّ، وذلك في الآيات الكريمات من الرّابعة والثّلاثين إلى السّادسة والثّلاثين. وإذا كانت سورة الزّخرف قد قرّرت استعلاء الشّيطان على صاحبه الضّالّ عن سبيل الهدى فإنّها سوف تقرّر لاحقاً، في الآيات الكريمات من السّابعة والسّتّين إلى الثّامنة والسّبعين أنّ أصدقاء الدّنيا على الطّاعات أصدقاء الآخرة في جنّات النّعيم، وأنّ أصدقاء الدّنيا على المعاصي أعداء الآخرة في نار الجحيم.

وبقصد تسلية فؤاد المصطفى - صلّى الله عليه وسلّم - يبيّن السّيـــاق أنّ على النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم - البلاغَ وَحْدَه، وقد فعل، وأنّ عذاب المشركين سوف يتحقّق إن لم يتداركوا الأمر قبل فوات الأوان، وأنّ على المصطفى - صلّى الله عليه وسلّم- والأمّة الإسلاميّة أن تستمسك بهَدْي القرآن الكريم الكتاب العزيز الّذي فيه الغَناء عن كلّ ما سواه، بدليل أنّه عليه الصّلاة والسّلام لم يسأل مؤمني أهل الكتاب ما جاء على لسان الحقّ جلّ وعلا في الآية الكريمة الخامسة والأربعين: {أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} إذ إنّ الجواب معلوم.

ثمّ تحّول السّياق إلى الحديث عن موسى - عليه السّلام - وتجربته المريرة وقصّته المثيرة مع فرعون مصر وملئه. وقد كان الحديث مستفيضاً بسبب وجه الشّبه الكبير بين ملابسات دعوتي محمد وموسى — عليهما السلام -. وقد جعل الله تعالى فرعون وملأه

الّذين أغرقهم في اليمّ عبرةً للسّابقين زمناً لكفّار مكّة وللمتأخّرين زمناً. ولا يخفى تثبيت فؤاده – صلّى الله عليه وسلّم – بإغراق الله تعالى فرعون وملأه، وإنجاء الله تعالى موسى – عليه السّلام– وقومه.

ثمّ تحوّل السّياق إلى الحديث عن عيسى – عليه السّلام – الّذي ليس بينه وبين محمّد عليه الصّلاةُ والسّلام نبيّ. إنّ كفّار مكّة قوم يحبّون الخصام لذات الخصام، والجدلَ لذات الجدل. إنّهم يعلنون عن رضاهم أن تكون آلهتهم في نار جهنمّ ادّعاءً منهم أنّها ستكون مع عيسى وعزير والملائكة الّذين عُبِدوا من دون الله تعالى. ونبالَةَ كفّار مكّة عن الحقيقة النّاصعة من كون هؤلاء الصّالحين من عباد الله تعالى ليسوا راضين عن عبادة المشركين لهم، وربّما كانوا غير عالمين بتلك العبادة أصلا. وقد بيّن السّياق بعض نعوت عيسى عليه الصّلاة والسّلام، ودعوته قومه إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، واختلاف الأحزاب من أتباعه عليه الصّلاة والسّلام فيه، ومن تلك الأحزاب الفرقةُ النّاجيةُ بإذن الله تعالى.

والقسم الأخير في السّورة الكريم يقرّر أنّ أصدقاء الدّنيا على الطّاعات أصدقاء الآخرة في جنّات النّعيم ويبين ثوابهم، كما يقرّر أنّ أصدقاء الدّنيا على المعاصي أعداء الآخرة في نار جهنّم ويبّين عقابهم. ومن هؤلاء الأعداء كفّار مكّة الّذين أصروا على شركهم وعلى عبادة الأصنام.

وتتحدّث الآيات الكريمات الأخيرات من السّورة الكريمة في قضيّة التّوحيد، المحور الّذي تدور حوله السّورة الكريمة. ويكون الحديث في هذه القضيّة من جوانبها المتعدّدة.

أنّ الله تعالى هو إله من في السّماء وإله من في الأرض يعبده أهلها وكلّهم خاضعون له. ولله تعالى ملك السّموات والأرض وما بينهما وعنده علم السّاعة وإليه يرجع الخلائق ولله تعالى الشّفاعة جميعا.

على أنّ الاستعراض الواسع للسّورة الكريمة هو الّذي سبق التّفسير تحت عنوان: "بين يدي التفسير".

٧- من موضوعات السّورة الكريمة القرآن الكريم الّذي كان الحديث عنه في الآيات الكريمات ٢، ٣، ٤، ٥، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٤٣، ٤٤ .

٨- من قضايا السّورة الكريمة تسلية المصطفى - صلّى الله عليه و سلّم - و تثبيت فؤاده عليه الصلاّة و السّلام. و من مظاهر التّسلية و تثبيت الفؤاد الحديث عن المرسلين السّابقين على جهة الإجمال كما في الآية الكريمة السّادسة، وعلى جهة التّفصيل بالحديث عن إبراهيم و موسى و عيسى عليهم صلاة الله تعالى و سلامه. و قد تكون التّسلية بطريقٍ مباشر كما في الآيتين الكريمتين الحادية و الأربعين، و الثّانية و الأربعين ، والآيتين الكريمتين الثّامنة والثّمانين، والتّاسعة والثّمانين.

٩- جاء النّصّ على إقرار مشركي مكّة بتوحيد الرّبوبيّة في الآيتين الكريمتين التّاسعة، والسّابعة والثّمانين .

١٠- في السّورة الكريمة إيماء إلى خلق الله تعالى الأزواج كلّها،و ذلك في الآية الكريمة الثّانية عشرة. و هذه الزّوجيّة أو الثّنائيّة تومئ إلى أنّه ليس من واحدٍ سوى الله تعالى.

و سبق أن تحدّثت سورة الشّورى في هذا المعنى حديثاً مستفيضاً بأكثر من أيّ سورةٍ أخرى من سورة القرآن الكريم.و من هذه الآيات الكريمات الحادية عشرة. و التّاسعة والأربعون، والخمسون. وسورتا الشّورى والزّخرف من سور آل حم.

١١- من قضايا السّورة الكريمة البعث بعد الموت و السّورة الكريمة تريد من المشركين أن يؤمنوا بالبعث و بالعمل من أجل يوم القيامة كي يدخلوا جنّات النّعيم . وقد جاء الحديث عن البعث أو الإيماء إليه في عددٍ من الآيات الكريمات.

لقد جاءت الإشارة إلى البعث بعد الموت في الآيات الكريمات ١١و١٤و٣٢و٣٥و ٦١و٦٤و٧٨و٨٥و٨٦ .

١٢- في السّورة الكريمة تهديد للمشركين، كما في الآيات الكريمات ٧٩ و ٨٠ و٨٣ و أحياناً يكون التّهديد في أسلوب الخطاب كما في الآية الكريمة ٦٠ .

١٣- تكاد تكون سورة الزّخرف أكثر سور القرآن الكريم حديثاً عن نعمة الرّكوب بحراً و برّاً و عن وجوب الشّكر لله تعالى على هذه النّعمة، و ذلك في الآيات الكريمات ١٢-١٤ .

١٤- قضيّة التّوحيد هي المحور الّذي تدور حوله السّورة الكريمة و تخدمه سائر القضايا و الموضوعات في السّورة الكريمة. لقد عمّقت السّورة معنى توحيد الرّبوبيّة الّذي اعترف به المشركون في الآية الكريمة التّاسعة ابتداءً . إنّ الآيات الكريمات من ١٠ إلى ١٤ تبيّن معنى الاسمين الكريمين ، العزيز العليم، اللّذين جاءا على لسان المشركين أثناء الاعتراف بتوحيد الرّبوبيّة.و قد عرفنا أنّ المشركين اعترفوا كذلك بتوحيد الرّبوبيّة في الآية الكريمة ٨٧ و كان الحديث بعد ذلك عن توحيد الألوهيّة بقصد حمل المشركين على الإقرار بهذا التّوحيد، لأن الإقرار بتوحيد الرّبوبيّة وَحْدَهَ لا يُغني و لا يفيد. وكان الحديث عن توحيد الألوهيّة بهدف إقرار المشركين به عن طريق النّعي على المشركين شركهم في الآيات الكريمات ١٥-٢٥ الّتي تتحدّث عن عبادة العرب الأصنام الّتي صاغوها وفق صورة الملائكة في خيالهم السّقيم. وإبراهيم - عليه السّلام -دعا إلى عقيدة التّوحيد، الآيات ٢٦-٢٨ و الآيات الكريمات الّتي تتحدّث عن كفّار مكّة و عن هوان الدّنيا على الله تعالى و إلاّ ما سقى الكافر فيها شربة ماء محورها التوحيد، الآيات ٢٩-٤٥ و موسى - عليه السّلام - دعا إلى عقيدة التّوحيد، الآيات ٤٦-٥٦. وعيسى - عليه السّلام - دعا إلى عقيدة التّوحيد. وكان الحديثُ عن أتباع عيسى عليه

السّلام، و عن أصحاب الجنّة و أصحاب النّار، و الدّعوة إلى إفراد الله تعالى بالعبادة حتّى نهاية السّورة الكريمة ، كان كلّ ذلك بهدف حمل المشركين على الإقرار بتوحيد الإلوهية بإفراد الله تعالى بالعبادة كي ينالوا الثّواب العظيم في جنّات النّعيم.

رابعاً

سورة الدّخان

﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ
إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا
مُرۡسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ
رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ﴿٩﴾
فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ
أَلِيمٞ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ
جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُواْ
ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ
﴿١٦﴾ ۞ وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنۡ
أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم
بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ أَن تَرۡجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ لِي
فَٱعۡتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا
إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمۡ تَرَكُواْ

مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ
﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ
وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن
فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ
هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟
بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ
أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا
لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ
يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا
هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ
شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾
كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟
فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ

﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى
جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾
كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ
ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ
وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ
﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم
مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

بين يدي التفسير

"اللّه تعالى ربّ العالمين هو الّذي أنزل القرآن الكريم، وأرسل محمّداً صلّى اللّه عليه و سلّم رحمةً للعالمين، وبطش بالّذين عادوا كافرين"

الآيات (١-١٦)

تبدأ سورة الدّخان المكّية الكريمة و خامس سور آل حم بما بدأت به سورة الزّخرف السّابقة : ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢﴾ و بذلك تبدأ السّورتان الكريمتان بالحرفين المقطّعين اللّذين تبدأ بهما كلّ سور آل حم، إضافةً إلى القول:(وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ) وبذلك يكون حديث السّورتين الكريمتين عن القرآن الكريم على الفور. ويستمر الحديث عن القرآن الكريم و الانتصار له. إنّ الحقّ جلّ وعلا الّذي يُقْسِم بهذا الكتاب العزيز المبين أنزل هذا الكتاب المبين في ليلةٍ مباركة. و هذه الليلة المباركة هي ليلة القدر من شهر رمضان المبارك. والمعنى أنّ القرآن الكريم أنزله الحقّ جلّ وعلا من اللّوح المحفوظ جملةً واحدةً إلى السّماء الدّنيا في بيت العزّة في ليلة القدر من شهر رمضان المبارك. ثمّ أنزل الحقّ جلّ وعلا القرآن الكريم مفرّقاً على المصطفى – صلّى الله عليه وسلّم– في ثلاثٍ وعشرين سنةً بحسب القضايا ومختلف الأحوال. وبذلك تحقق للقرآن الكريم صفة النّزول جملةً واحدةً مثل سائر الكتب السّماويّة السّابقة. ونزول القرآن الكريم جملةً واحدةً إلى السّماء الدّنيا تنويه بشأن هذا الكتاب العزيز، وتنبيه لأهل السّماء على جلال المناسبة وضخامة الحدث. وقد انفرد القرآن الكريم بين سائر الكتب السّماويّة. بنزوله مرّةً أخرى على المصطفى – صلّى الله عليه وسلّم– مفرقا.

و الله سبحانه و تعالى أراد بإنزال الكتاب المبين الإنذار به للكافرين ، و التّخويف به للعاصين. و كذلك أراد الحقّ جلّ و علا بإنزال الكتاب العزيز تبشير المؤمنين المتّقين. والسّورة الكريمة تقوم في ختامها على جهة الخصوص بهذا التبشير و تنطق به. و بذلك يكون التّبشير مفهوماً من الإنذار في أوّل السّورة الكريمة.

وهذه اللّيلة المباركة الّتي نزل فيها القرآن الكريم يقضي الله تعالى فيها كلّ أمرٍ مُحْكم ويفصل من اللوح المحفوظ إلى الكَتَبة أمر السنة و ما يكون فيها من الآجال والأعمال والأرزاق والولادة والموت والمعيشة والمصيبة والعزّ والذّلّ وما إلى ذلك.إنّ الحقّ جلّ وعلا يقضي بذلك كلّه أمراً من عنده عزّ وجلّ.

والله تعالى الّذي أنزل القرآن الكريم في الليلة المباركة أرسل المرسلين رحمةً منه بعباده، وأرسل محمّداً - صلّى الله عليه وسلّم - خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين رحمةً للعالمين .

إنّه جلّ و علا السّميع لكلّ صوت، العليم بكلّ شيء، ربّ السّموات و الأرض وما بينهما ربّ العالمين.

وأنتم يا كفّار مكّة، يا من تقرّون بتوحيد الرّبوبيّة، إن كنتم موقنين أنّ الله سبحانه و تعالى هو خالق كل شيء ومليكه ومدبّره فأيقنوا برسالة محمّدٍ - صلّى الله عليه وسلّم-، وآمنوا به، واتّبعوا النّور الّذي أُنزِل معه، و انتهوا عن الشّرك، وأفردوا الله تعالى بالعبادة ، وبذلك تضيفون الإقرار بتوحيد الإلوهية إلى الإقرار بتوحيد الرّبوبيّة الّذي لا يكفي وَحْدَه دون الإقرار بتوحيد الألوهيّة.

إنه لا إله إلاّ الله الّذي يحيي من يريد إحياءه، ويميت من يريد إماتته، ربّكم أيّها المشركون وربّ آبائكم الأوّلين.

الحقيقة يا محمّد أنّ مشركي قومك في شكهم يلعبون، وفي ارتيابهم من إرسال الله تعالى برسالة التّوحيد، وإنزال الكتاب العزيز عليك يتحيّرون.

وتجاه إصرار كفّار مكّة على شركهم وعنادهم دعا - صلّى الله عليه وسلّم - عليهم بسنين كسني يوسف عليه الصّلاة والسّلام السّبع العجاف. وقد استجاب الحقّ جلّ وعلا دعاء حبيبه - صلّى الله عليه وسلّم - حتّى أكلوا العظام والجلود والميتة، وحتّى كان الواحد منهم يرى بين السّماء والأرض ما يشبه الدّخان من شدّة الحرارة والَجدْب والجَهْد. طلبت قريش من النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أن يسأل الله تعالى رفع العذاب عنها ووَعَدَتْ بالإيمان. أَعْلَمَ الحقّ جلّ وعلا حبيبه صلّى الله عليه وسلّم أنّ القوم بعد كشف العذاب عنهم عائدون لشركهم وأنّه عزّ وجلّ منتقم منهم.

يخاطب السّياق محمّداً صلّى الله عليه وسلّم في هذه المعاني ويقول له: فارتقب يا محمّد وانتظر يوم تأتي السّماء بدخانٍ مبينٍ يغشى النّاس الكافرين ويغطّي أبصارهم، استجابةً لدعائك يا محمّد عليهم. ويقول الكافرون وقتها: هذا عذاب أليم. ويدعون الله تعالى أن يكشف عنهم العذاب ويَعِدون بالإيمان: ﴿ رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ ويسأل السّياق في إنكار: كيف تنفع المشركين الذّكرى وقت نزول العذاب وقد جاءهم مِن قَبْلُ رسول من الله تعالى مبين في أوضح بيانٍ عن رسالته. وبدلاً من أن يؤمنوا بهذا الرّسول الكريم ويتّبعوه كما يقول العقل والمنطق هم يعرضون عنه ويزعمون أنّ ثمّة من يعلّم محمّداً - صلّى الله عليه وسلّم - القرآن الكريم، وأنّه عليه الصّلاة والسّلام شخص مجنون: ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ كَبُرَتْ ﴾.

إنّ الحقّ جلّ وعلا يستجيب إلى دعاء المصطفى - صلّى الله عليه وسلّم - ويخبره أنّ القوم سوف يعودون إلى شركهم وأنّه جلّ وعلا سوف يبطش بهم البطشة الكبرى

ويأخذهم أخذ عزيزٍ مقتدر. لقد تحقق كلّ الّذي قرّره القرآن الكريم في مجال الإنباء بالغيب فعاد المشركون إلى شركهم وبَطش الله تعالى بهم البطشة الكبرى يوم بدر.

ومن أهمّ ما يلحظ بشأن الحديث عن عدم استعمال المشركين عقولهم استعمالاً صحيحاً مجيء حرف العطف (ثمّ) الذي يفيد من الجهة النّحويّة التّرتيب مع التّراخي وذلك في القول: ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ ﴾ إنّ المشركين لا يرتّبون النّتيجة الصّحيحة على المقدّمة الصّحيحة. إنّ المقدّمة الصّحيحة هي مجيء الرّسول المبين محمّد – صلّى الله عليه وسلّم– . وإنّ النّتيجة غير الصّحيحة إعراض المشركين عن النّبيّ – صلّى الله عليه وسلّم – واتّهامه بأنّه معلم مجنون. لقد نبّه حرف العطف (ثمّ) على البعد غير المنطقيّ وغير المعقول بين المقّدمة والنّتيجة، انطلاقاً من إفادة حرف العطف (ثمّ) أساساً البعد مع التّراخي من الوجهة النحويّة.

(٢)

"نجّى الله تعالى موسى عليه السّلام وبني إسرائيل من فرعون والغرق، وأغرق فرعون وقومه"

الآيات(١٧-٣٣)

رغم إصرار مشركي قريش على شركهم وعنادهم تظلّ رحمة الله تعالى تلاحقهم.وها هو ذا السّياق ينذرهم بالمصير السّيئ الّذي كان من نصيب فرعون وقومه الّذين يفوقون كفّار مكّة شدّةً وبطشا. يقرّر السّياق أنّ الحقّ جلّ وعلا ابتلى قوم فرعون واختبرهم وجاءهم رسولٌ كريم على الله تعالى هو موسى - عليه السّلام-. إنّ أوجه الشّبه كثيرةٌ بين ملابسات دعوتي موسى ومحمد- عليهما السلام -، ولهذا يكثر في القرآن الكريم تحوّل الحديث من دعوة محمد إلى دعوة موسى — عليهما السلام-. وهذا التّحوّل في الحديث إلى موسى - عليه السّلام - وقومه ضرب من تسلية محمّدٍ - صلّى الله عليه وسلّم - والتّسرية عنه. إنّ كلّ رسل الله تعالى بُعثوا برسالة التّوحيد. وإنّ ما يقوله موسى - عليه السّلام- لقومه هو وما يقوله محمّد-صلّى الله عليه وسلّم - لقومه ويقوله سائر المرسلين عليهم صلوات الله تعالى وسلامه أجمعين. إنّ موسى - عليه السّلام - طلب من قومه الّذين أُرْسِلَ إليهم أن يؤدوا إليه حقّه الّذي أوجبه الله تعالى عليهم باتّباعه عليه الصّلاة والسّلام وإفراد الله تعالى بالعبادة .وهو عليه الصّلاة والسّلام في القول{أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ} بمعنى يا عباد الله، يمتثل أمر الله تعالى بأن يكون قوله - عليه الصّلاة والسّلام - ليّناً في دعوته فرعون وقومه إلى الله تعالى. ويبين - عليه السّلام- أنّه رسول من الله تعالى، أمين على رسالة ربّه، حريص على القوم

الّذين أرسله الله تعالى إليهم. وينهاهم عليه السلام عن التعالى على الله تعالى والاستكبار عن عبادته. إنّ الله تعالى جعله يأتي الّذين يدعوهم بحجّة قاهرة، هي الآيات التّسع البيّنات الّتي خصّه الله تعالى بها. وإنّه - عليه السّلام- يعوذ بربّه جلّ وعلا وربّهم أن يرجموه - عليه السّلام -بالحجارة أو بشتائمهم. وإن هم أصرّوا على عدم الإيمان له - عليه السّلام- فلا أقلّ من أن يتركوه وشأنه، وألاّ يكونوا حجر عثرة في طريق دعوته - عليه السّلام- إلى الله تعالى.

وأصرّ فرعون وقومه على كفرهم وعنادهم كما أصرّ كفّار مكّة. فدعا موسى عليه الصّلاة والسّلام ربّه جلّ وعلا بأنّ هؤلاء الكافرين قوم مجرمون بسبب شركهم. فأمره الله تعالى أن يسير بعباده جلّ وعلا المؤمنين من بني إسرائيل آخر اللّيل قبيل الفجر، وأخبره أنّ فرعون وقومه من القبط سيتبعونهم لخروجهم دون إذن فرعون الطّاغية. لقد تحقّق كلّ ما قصّه الحقّ جلّ وعلا في الكتاب العزيز بشأن موسى عليه السّلام، كما تحقّق كلّ ما قصّه الحقّ جلّ وعلا بشأن محمّدٍ - صلّى الله عليه وسلّم - . لقد تبع فرعون وقومه موسى - عليه السّلام- وقومه. وبأمر الله تعالى ووحيه ضرب موسى - عليه السّلام- البحر الأحمر فانفلق عن طريقٍ يابسٍ وارتفع الماء على كلٍّ من جانبي الطّريق كالجبل الشّامخ. وتبع فرعون وقومه موسى - عليه السلام- وقومه في الطّريق بين الجبلين من الماء. ونجا موسى - عليه السّلام - وقومه ووصلوا إلى برّ الأمان. وقد أراد موسى - عليه السّلام- بعد أن دخل البحر أن يضرب البحر بعصاه كي يعود ماءً كما كان فيمنع فرعون وقومه من دخول الطّريق اليَبَس بين الجبلين من الماء فأمره الله تعالى أن يترك البحر ساكناً كما هو، كي يدخله فرعون وقومه، وكي يلتحم الجبلان من الماء فيغرق فرعون وجنوده أجمعون، لقد تحقّق كلّ الّذي قصّه الحقّ جلّ وعلا، وها هو ذا البحر يلتئم على فرعون وقومه ويمضي الجميع كأمس الدّابر.

ما أكثر الحدائق الغنّاء الّتي تركها فرعون وقومه، العيون الجارية، والزّروع النّضرة، والأماكن الحسنة، والمساكن الجميلة، وما أعظم التّرفّه الّذي كانوا يرفلون فيه، ويتفكهون بسببه.

الأمر كذلك وكما شاء الحقّ جلّ وعلا، وأورث الله تعالى كلّ ذلك قوماً آخرين هم بنو إسرائيل الّذين بقُوا في مصر.

إن السّماء والأرض لم تبكيا على فرعون وقومه لأنّ أبواب السماء تبكي المؤمن الّذي انقطع بموته كلمة الطيّب وعمله الصّالح اللّذان يلجان أبواب السّماء، ولأنّ الأرض تبكي المؤمن الّذي مات لأنّه كان يعبد الله تعالى عليها. و لم يكن فرعون وقومه مؤخَّرين لتوبةٍ أو مَعْذِرة.

إن الله سبحانه وتعالى نجى بني إسرائيل من العذاب المهين، من فرعون الّذي كان عالياً طاغياً من المسرفين المتجاوزين كلّ حدود البغي. لقد كان فرعون يقتل ذكور أطفال بني إسرائيل ويبقي الإناث أحياء لتسخيرهنّ للخدمة حينما يبلغن مبلغ النّساء، ويسخّر بني إسرائيل في الأعمال الشّاقّة. ولقد اختار الله تعالى بني إسرائيل على عالمي زمانهم على علمٍ منه جلّ وعلا بمن هو أهل للاختيار والاصطفاء.

وقد آتاهم الله تعالى من الآيات البيّنات والنّعم الباهرات ما فيه اختبار واضح لهم. أيشكرون لله تعالى نعمة عليهم أم يكفرون. أيصبرون عن المعصية وعلى الطاعة والابتلاء أم يجزعون.

ولا يخفى أنّ نصر الله تعالى موسى - عليه السّلام- والمؤمنين تثبيت لفؤاد محمّدٍ صلّى الله عليه وسلّم الّذي دعا على القوم الكافرين كما دعا موسى عليه السّلام، ولأفئدة المؤمنين.

(٣)

"كفّار مكّة المنكرون للبعث ليسوا خيراً من المنكرين السّابقين الّذين أهلكهم الله تعالى. وعذاب المجرمين في النّار أليم، وثواب المتّقين في الجنّة مقيم"

الآيات (٣٤-٥٩)

على الرّغم من حديث السّورة الكريمة المستفيض عن فرعون وقومه وإهلاك الله تعالى لهم وإنجاء المؤمنين ونصرهم يصر كفّار مكّة على شركهم وعنادهم وإنكارهم البعث. إنّ السّياق يبين كلّ ذلك كما يبيّن العذاب الأليم للمجرمين في النّار، والثّواب المقيم للمتّقين في الجنّة. إنّ هؤلاء الحقيرين من المشركين ليقولون: ما هي إلاّ موتتنا الأولى في الدّنيا وما نحن بمبعوثين. ويلجأ المشركون إلى أسلوب المغالطة إذ يطلبون من النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ومن المؤمنين أنّ يأتوا بآبائهم الأموات أحياء إن كانوا صادقين بأنّ ثمّة بعثاً فجزاءً. ويقال لهؤلاء إنّ إعادة الله تعالى الموتى أحياء ليس في هذه الحياة الدّنيا ولكن في الآخرة.

وكما أنّ كفّار مكّة ليسوا خيراً من فرعون وقومه، هم كذلك ليسوا خيراً من قوم تُبّعٍ ملك اليمن والّذين من قبلهم من المشركين الّذين أهلكهم الله تعالى بسبب إجرامهم.

وهل يظن المشركون أنّ الحقّ جلّ وعلا خلق السّموات والأرض وما بينهما بباعث اللهو والتّسلية. إنّ الله تعالى ما خلقها إلاّ بالحقّ ولكنّ أكثر النّاس، وهم المشركون، لا يعلمون هذه الحقيقة.

ويتحوّل السّياق إلى الحديث عن يوم القيامة وعذاب الكافرين وثواب المؤمنين.

إنّ يوم الفصل بين الخلائق يوم القيامة هو الموعد المضروب للخلائق أجمعين. في ذلك اليوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً بسبب القرابة أو النّسب أو الصّداقة وما إلى ذلك. وهم لا يُنْصَرون بصرف العذاب عنهم أو تخفيفه. إلاّ من رحمه الله تعالى فهداه إلى توحيده وإفراده عزّ وجلّ بالعبادة وعَمَلِ الصّالحات فإنّ المؤمن يُغْنِي بإذن الله تعالى عن المؤمن شيئاً فتكون الشّفاعة لمن أذن الله تعالى له ورضي عنه. إن الله تعالى هو العزيز في ملكه الغالب المنتقم من الكافرين، الرّحيم بأوليائه المؤمنين.

إنّ شجرة الزّقوم طعام الكثير الآثام في أقواله وأفعاله. إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم، طلعها المشبّه بطلع النّخل كأنّه رؤوس الشّياطين لقبحه. وذلك الطّعام يشبه عَكَر الزّيت الّذي بلغ درجة الغليان. ويقال لملائكة العذاب: خذوا هذا الكافر أخذاً عنيفاً، وادفعوه من الخلف واسحبوه بقَسْوة إلى وسط النّار، ثمّ صبّوا فوق رأسه من ذلك الماء الشّديد الغليان.

ويقال له على سبيل التبكيت والتّقريع: ذق هذا العذاب المهين، إنّك أنت العزيز الكريم حسب زعمك في الدّنيا، والحقيقة أنّك أنت الذّليل اللئيم في الآخرة.

إن هذا الّذي نصّ عليه القرآن الكريم من العذاب كأنّه قد وقع فعلاً لثبوت تحقّقه ولذا يقال لهم: إنّ هذا العذاب هو الّذي كنتم تشكون فيه في الحياة الدنيا.

أمّا المتّقون فإنهم في مكانٍ آمنٍ من جميع الآفات.

في حدائق غنّاء، وعيونٍ جارية، يلبسون من رقيق الدّيباج وغليظه، يرى بعضهم وجوه بعضٍ لدوران الأسرّة بهم.

الأمر كما بيّن الحقّ جلّ وعلا. وزوّجهم عزّ وجلّ بحور نقيّات البياض، عِينٍ واسعات الأعين. يطلبون في الجنّة من الخدم أن يأتوهم بكلّ فاكهة، وهم آمنون من كلّ المنغّصات. لا يذوقون في الجنّة الموت إلاّ الموتة الأولى الّتي ذاقوها في الحياة الدّنيا. ووقاهم الله تعالى عذاب النّار وحفظهم منه، فضلاً من ربّك يا محمّد ويا أيّها المؤمن. ذلك هو الفوز العظيم حقّا.

وإنما يسّرنا القرآن الكريم وسهّلناه بلسانك يا محمّد لعلّهم يتّعظون حينما تتلوه عليهم بلسانٍ عربيٍ مبين.

فانتظر يا محمّد ما سوف أنالهم به من سوء، إنّهم منتظرون بك كلّ سوء، ومتربصّون بك الدّوائر، فلا تأبه لهم، ولا تهتمّ بهم، فإنا في نحورهم، وكافوك شرورهم.

التّفسير

(١)

"اللّه تعالى ربّ العالمين هو الّذي أنزل القرآن الكريم،
وأرسل محمّداً صلى اللّه عليه وسلم رحمةً للعالمين،
وبطش بالّذين عادوا كافرين"

الآيات (١-١٦)

﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ۝٥ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٨ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ۝٩﴾

إنّا أنزلناه: القرآن العظيم[1].

في ليلة مباركة: هي ليلة القدر من شهر رمضان المبارك[2].

فيها يُفْرَق كلّ أمر حكيم: في تلك الليلة المباركة ليلة القدر[3] يقضي الله تعالى[4] ويفصل من اللّوح المحفوظ إلى الكَتَبة أمر السَّنة وما يكون فيها من الآجال والأرزاق، وما يكون فيها إلى آخرها[5] من ولادةٍ وموتٍ، ومعيشةٍ ومصيبةٍ وما إلى ذلك[6].

حكيم: محكم[7].

أمرا: مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو ملاقيه في المعنى أي فرقاً[8].

---

[1] تفسير ابن كثير ٢٣١/٧.

[2] تفسير ابن كثير ٢٣١/٧.

[3] تفسير الطّبري ٦٤/٢٥.

[4] تفسير الطّبري ٦٤/٢٥.

[5] تفسير ابن كثير ٢٣١/٧.

[6] انظر -مثلاً- تفسير الطّبري ٦٤/٢٥ و٦٥.

[7] تفسير الطّبري ٦٤/٢٥.

[8] الجدول في إعراب القرآن الكريم وصرفه ٣٦٤/١١.

إن كنتم موقنين: جواب الشّرط محذوف، أي أيقنوا برسالة محمد - صلّى الله عليه وسلّم- [1].

بل هم في شكٍّ يلعبون: بل للإضراب الانتقالي[2] أي ما هم بموقنين بحقيقة ما يقال لهم ويخبرون من هذه الأخبار، يعني مشركي قريش، ولكنّهم في شكٍّ منه، فهم يلهون بشكّهم في الّذي يخبرون به من ذلك[3] استهزاءً بك يا محمد[4].

تبدأ سورة الدخان الكريمة بالآيتين الكريمتين اللّتين ابتدأت بهما سورة الزخرف الكريمة. قال تعالى ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢﴾ ويقال عن الآيتين الكريمتين هنا ما سبق أن قيل عنهما هنالك. ويأتي الحديث بعد الحرفين المقطعين: {حم} عن القرآن الكريم على الفور، إنّ الحقّ جلّ وعلا يُقْسِم بالقرآن الكريم، والكتاب العزيز، المبين عن معانيه ومراميه. والله تعالى أنزل هذا الكتاب العزيز في ليلةٍ مباركةٍ هي ليلة القدر من شهر رمضان المبارك من اللوح المحفوظ إلى السّماء الدّنيا جملةً واحدة. قال تعالى[5]: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ۝٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ۝٥﴾.

---

[1] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣٦٤/١١ .

[2] الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣٦٥/١١ .

[3] تفسير الطبري ٦٦/٢٥ .

[4] الجلالين .

[5] سورة القدر ١- ٥ .

وقال تعالى[1]: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾

عن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس قال: فُصِلَ القرآنُ من الذّكر، فوُضع في بيت العزّة من السّماء الدّنيا، فجعل جبريل يترل به على النّبي - صلّى الله عليه وسلّم -[2].

والله سبحانه وتعالى أراد بإنزال الكتاب المبين في ليلة القدر المباركة من شهر رمضان المبارك وإيحاء القرآن الكريم إنذار النّاس بين يدي العذاب الشّديد يوم القيامة. وفي تلك اللّيلة المباركة يقضي الله تعالى ويفصل من اللّوح المحفوظ كلّ أمرٍ مُحْكم وكلّ قضاء مقدّر إلى السّنة التّالية، من الأعمال و الأرزاق والآجال والسّعادة والشّقاوة والعزّ والذّلّ وسائر أمور السّنة. لقد أمر الله تعالى بذلك أمراً من عنده عزّ وجلّ. وأنه جلّ وعلا كان دائماً وأبداً يرسل رحمةً من لدنه تشمل عباده في هيئة المرسلين والنّبيين الّذين يبعثهم الله تعالى. وقد تجلّت رحمة ربّك السّميع العليم يا محمد ويا أيّها الإنسان وظهرت في أرفع صورها وأبهى حللها في محمّد بن عبد الله - صلّى الله عليه وسلّم-، خاتم النبيين، وأشرف المرسلين، عليهم صلوات ربّ العالمين وسلامه أجمعين.

إنّه عزّ وجلّ ربّ السّموات والأرض. وإنّكم يا كفّار مكّة، يا من تعترفون بتوحيد الربوبيّة، إن كنتم موقنين أن الله تعالى هو خالق كلّ شيءٍ ومليكه فأجمعوا إلى توحيد

---

[1] سورة البقرة ١٨٥ .

[2] الإتقان ١٤٧/١ .

الرّبوبيّة توحيد الألوهيّة، وأفردوا الله تعالى بالعبادة، واتبعوا محمّداً - صلّى الله عليه وسلّم - والنّور الّذي أنزله الله تعالى معه.

إنّه لا إله إلاّ هو، ولا معبود بحق أحد سواه، يحيي من يريد إحياءه، ويميت من يريد إماتته، إنّه ربّكم وربّ آبائكم الأوّلين الّذين يضلّونكم ويهدونكم إلى عذاب السّعير.

الحقيقة أنّ كفّار مكّة في شكٍّ ممّا يدعوهم إليه محمّد - صلّى الله عليه وسلّم - من توحيد الله تعالى والإيمان بالبعث، فهم في شكّهم يلعبون، وفي حَيْرتهم يتردّدون.

﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

سبب النّزول:

روى البخاريّ في صحيحه[1] عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه أنّ قريشاً لما استعصَوْا على النّبي - صلّى الله عليه وسلّم - دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم قحطٌ وجَهْد، حتّى أكلوا العظام[2] فجعل الرّجل ينظر إلى السّماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدّخان من الجَهْد فأنزل الله عز وجلّ: {فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ. يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ.} قال فأتِيَ رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- [3] فقيل له :

---

[1] فتح الباري ٥٧١/٨ حديث رقم ٤٨٢١ وانظر الأحاديث ٤٨٢٢ و٤٨٢٣ و٤٨٢٤ .

[2] في حديث٤٨٢٤: ((حتى أكلوا العظام والجلود . وقال أحدهم :حتى أكلوا الجلود والميتة)) .

[3] في حديث ٤٨٢٤ :((فأتاه أبو سفيان)).

استسق الله لمُضَر[1] فإنّها قد هلكت: قال لمضر؟ إنك لجريء[2].

فاستسقى فَسَقُوا فنزلت: {إِنَّكُمْ عَائِدُونَ} فلما أصابتهم الرّفاهية[3] عادوا إلى حالهم حين أصابتهم الرّفاهية، وأنزل الله عزّ وجلّ: {يوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ} قال: يعني يوم بدر.

فارتقب: فانتظر يا محمّد بهؤلاء المشركين من قومك الّذين هم في شكٍّ يلعبون. وإنّما هو افتعل من رقبته إذا انتظرته وحرسته[4].

بدخانٍ مبين: لمن تأمله أنّه دخان[5].

يغشى النّاس: يغشى أبصارهم من الجهد الّذي يصيبهم[6].

هذا عذابٌ أليم: يقولون ممّا نالهم من ذلك الكرب والجهد هذا عذابٌ أليم، وهو الموجع[7].

أنّى لهم الذّكرى: كيف لهم[8] ومن أيّ وجهٍ لهؤلاء المشركين التّذكّر من بعد نزول البلاء بهم[9] أيّ لا ينفعهم الإيمان عند نزول العذاب[10].

---

(1) جاء في الفتح ٥٧٣/٨ (لعلّ السّائل عدل عن التعبير بقريش لئلا يذكرهم بجرمهم)) .

(2) أي أتأمرنا أن أستسقي لمضر مع ما هم عليه من المعصية والإشراك به)) فتح ٥٧٣/٨.

(3) الرّفاهية: بتخفيف التّحتانيّة بعهد الهاء أي التّوسّع والرّاحة. فتح ٥٧٢/٨.

(4) تفسير الطّبري ٦٦/٢٥.

(5) تفسير الطّبري ٦٩/٢٥.

(6) تفسير الطّبري ٦٩/٢٥.

(7) تفسير الطّبري ٦٩/٢٥.

(8) تفسير الطّبري ٦٩/٢٥.

(9) تفسير الطّبري ٦٩/٢٥.

(10) الجلالين.

وقالوا معلّم: أي يعلّمه القرآن بشر[1].

يوم نبطش البطشة الكبرى: البطش تناول الشّيء بصولة[2].

حينما أصرّ كفّار مكّة على شركهم وتكذيبهم محمّداً صلّى الله عليه وسلّم وعلى إنكارهم البعث دعا صلّى الله عليه وسلّم عليهم بسنين كسني سيدنا يوسف عليه الصّلاة والسّلام. والمراد السّبع السّنين العجاف الّتي تعقب سبع سني الخصب، والّتي يعقبها العام الخامس عشر الّذي فيه يغاث النّاس بالمطر، وفيه يَعْصِرون ما يُعْصَر من الفواكه دليل الخصب من فصب السّكّر والموالح والأعناب وما إلى ذلك.

لقد كان يوسف - عليه الصّلاة والسّلام - مظلوماً في السّجن الّذي زَجّه فيه الطّغاة عقاباً له على طهره وعفافه. ودخل معه السّجن رِجْلاً برِجْل فَتيان متّهمان أحدهما ساقي الملك وآخرهما خبّاز. وقد رأى كل منهما رؤيا عبّرها له يوسف عليه السّلام. وتحقّق تأويل رؤيا الخبّاز الّذي صُلِب، وتأويل رؤيا السّاقي الّذي ثبتت براءته، وعاد إلى عمله، ونسي صديقه يوسف - عليه السّلام - الّذي طلب منه أن يذكر للملك الظّلم الّذي حاق به كي ينصفه. وشاء الله تعالى أن يرى الملك رؤيا عجز الجميع عن تأويلها، فتذكّر الساقي صديقه يوسف - عليه السّلام - المعبّر للرّؤى، والّذي عبّر رؤيا ملك مصر. جاء في تعبير يوسف - عليه السّلام - الرّؤيا قول الحقّ جلّ وعلا في سورة يوسف[3] ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

---

[1] الجلالين .

[2] مفردات الرّاغب الأصفهاني: "بطش" ٦٤/١.

[3] الآيات ٤٧-٤٩.

لقد طلبت قريش من النّبي – صلّى الله عليه وسلّم – أن يدعو الله تعالى برفع العذاب عنهم ففعل عليه الصّلاة والسّلام، وعادوا إلى شركهم وعنادهم، فأخذهم الله تعالى بالبطشة الكبرى، والسّطوة العُظْمى يوم بدر.

يأمر السّياق المصطفى – صلّى الله عليه وسلّم – بأن ينتظر بهؤلاء المشركين الّذين هم في شكّهم يلعبون يوم تأتي السّماء بما يشبه الدّخان الّذي ينتشر في السّماء ويحول بين الأبصار وأن ترى السّماء على حقيقتها بسبب ذلك الدّخان المنبعث بسبب الجدب، وشدّة الحرارة.

لقد اضطرّ المشركون لأكل الميتة والجلود والعظام.

إنّ ذلك الدّخان الّذي تأتي به السّماء يغشي النّاس ويغطّي أبصارهم، ويقولون بسبب الكرب العظيم الّذي هم فيه:هذا عذاب مؤلم موجع.

ويسأل المشركون ربّهم جلّ وعلا أن يكشف عنهم العذاب، ويزعمون أنهم مؤمنون فعلاً. والله تعالى الّذي لا يخفى عليه ادّعاؤهم الإيمان ينكر عليهم أن ينفعهم التّذكّر وقت نزول العذاب وبعد فوات الأوان، وقد جاءهم الرّسول محمد – صلّى الله عليه وسلّم – يدعوهم إلى الله تعالى وينذرهم بلسانٍ عربي مبينٍ فكذّبوه. كيف تنفعهم الذّكرى في غير وقتها وبعد أن أعرضوا عنه صلّى الله عليه وسلّم وزعموا أنّ هنالك من يعلّم محمّداً صلّى الله عليه وسلّم القرآن، مِنَ البشر أو غير البشر، وأنّه عليه الصّلاة والسّلام ليس رجلاً عاقلاً بل هو شخص مجنون.

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾.[1]

---

[1] سورة الكهف ٥ .

جاء في اتّهام المشركين له – صلّى الله عليه وسلّم – بأنّه يعلّمه بشر في الرّدّ عليهم قول الحقّ جلّ وعلا في سورة النّحل[1]: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾.

ويستجيب الله تعالى دعاء حبيبه – صلّى الله عليه وسلّم – ، ويكشف عن كفّار مكّة العذاب قليلاً. ويخاطب الحقّ جلّ وعلا المشركين بأنّهم عائدون إلى شركهم وتكذيبهم وعنادهم: {إنّكم عائدون} وينذرهم الله تعالى بالانتقام منهم إن عادوا إلى الشّرك والتّكذيب والعناد وبالبطش بهم البطشة الكبرى، والسّطوة العظمى. ويعود المشركون إلى ما نهوا عنه، وتكون بطشة الله الكبرى بهم يوم بدر، يوم الفرقان. ذلك اليوم الّذي فرق الله تعالى فيه بين الحقّ والباطل.

---

[1] الآية ١٠٣.